وتأتى وراء بمعنى : غير . كما فى قوله تعالى فى صفات المؤمنين : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝ ﴾ [المؤمنون]

وفى قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ .. (٢٣) ﴾ إلى .. ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ .. (٢٤) ﴾ [النساء]

وقد تستعمل وراء بمعنى خلف ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ .. (١٨٧) ﴾ [آل عمران]

إذن : كلمة (وراء) جاءتْ فى القرآن على أربعة معانٍ : أمام ، خلف ، بعد ، غير . وهذا مما يُميِّز العربية عن غيرها من اللغات ، والملكة العربية قادرة على أن تُميِّز المعنى المناسب للسياق ، فكلمة العَيْن ـ مثلاً ـ تأتى بمعنى العين الباصرة . أو : عين الماء ، أو : بمعنى الذهب والفضة ، وبمعنى الجاسوس . والسياق هو الذى يُحدد المعنى المراد .

ثم يقول الحق سبحانه فى قرآنه عما أوضحه الخضر لموسى عليه السلام مما خفى عليه :

﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۝ ٨٠ ﴾

الغلام : الولد الذى لم يبلغ الحُلُم وسِنّ التكليف ، وما دام لم يُكلَّف فما يزال فى سِنِّ الطهارة والبراءة من المعاصى ؛ لذلك لما اعترض موسى على قتله قال : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً .. (٧٤) ﴾ [الكهف] أى : طاهرة ، ولا شكَّ أن أخْذ الغلام فى هذه السِّنِّ خَيْر له ومصلحة قبل أنْ تلوّثه المعاصى ، ويدخل دائرة الحساب .

إذن : فطهارته هى التى دعتنا إلى التعجيل بأخذه . هذا عن الغلام ، فماذا عن أبيه وأمه ؟

يقول تعالى : ﴿ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [الكهف] وكثيراً ما يكون الأولاد فتنة للآباء ، كما قال تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ(١) فَاحْذَرُوهُمْ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [التغابن]

والفتنة بالأولاد تأتى من حرص الآباء عليهم ، والسعى إلى جعلهم فى أحسن حال ، وربما كانت الإمكانات غير كافية ، فيُضطر الأب إلى الحرام من أجل أولاده . وقد علم الحق - سبحانه وتعالى - أن هذا الغلام سيكون فتنة لأبويه ، وهما مؤمنان ولم يُرد الله تعالى لهما الفتنة ، وقضى أن يقبضهما إليه على حال الإيمان .

وكأن قضاء الله جاء خيراً للغلام وخيراً للوالدين ، وجميلاً أُسدى إلى كليهما ، وحكمة بالغة تستتر وراء الحدث الظاهر الذى اعترض عليه موسى عليه السلام .

لذلك يُعَدُّ من الغباء إذا مات لدينا الطفل أو الغلام الصغير أنْ يشتد الحزن عليه ، وننعى طفولته التى ضاعتْ وشبابه الذى لم يتمتع به ، ونحن لا ندرى ما أُعدَّ له من النعيم ، لا ندرى أن مَنْ أُخذ من أولادنا قبل البلوغ لا يُحدَّد له مسكن فى الجنة ، لأنها جميعاً له، يجرى فيها كما يشاء ، ويجلس فيها أين أحب ، يجلس عند الأنبياء

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٣٧٦) : « بمعنى أنه يلتهى به عن العمل الصالح » وذكر ابن أبى حاتم فى هذا أثراً عن ابن عباس رضى الله عنهما : « هؤلاء رجال أسلموا من مكة فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم ، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا فى الدين فهمّوا أن يعاقبوهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [التغابن] .

وعند الصحابة ، لا يعترضه أحد ، لذلك يُسمَّوْن « دعاميص[1] الجنة »[2] .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [الكهف]

خشينا : خفْنا . فالواحد منا يولد له ابن ، فيكون قرة عَيْن وسنداً ، وقد يكون هذا الابن سبباً فى فساد دين أبيه ، ويحمله على الكذب والرشوة والسرقة ، فهذا الابن يقود أباه إلى الجحيم ، ومن الخير أن يبعد الله هذا الولد من طريق الوالد فلا يطغى .

﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾

ولا يفوت الخضر ـ عليه السلام ـ أن ينسب الخير هنا أيضاً إلى الله ، فيقول : أنا أحب هذا العمل وأريده ، إنما الذى يُبدِّل فى الحقيقة هو الله تعالى ﴿ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا .. ﴿٨١﴾ ﴾ [الكهف] فهذا الخير من الله ، وما أنا إلا وسيلة لتحقيقه .

وقوله : ﴿ خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً .. ﴿٨١﴾ ﴾ [الكهف] أى : طُهْراً ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الكهف] لأنهما أرادا الولد لينفعهما فى الدنيا ، وليكون قُرَّة عَيْن لهما ، ولما كانت الدنيا فانية لا بقاءَ لها ، وقد ثبت فى علمه تعالى أن هذا الولد سيكون فتنة لأبويْه ، وسيجلب عليهما المعاصى

(١) الدعاميص : جمع دعموص ، وهو الدخَّال فى الأمور أى أنهم سياحون فى الجنة دخَّالون فى منازلها لا يُمنعون من موضع . [لسان العرب ـ مادة : دعمص] .

(٢) عن أبى حسان قال : قلت لأبى هريرة : إنه قد مات لى ابنان ، فما أنت مُحدثى عن رسول الله ﷺ بحديث تُطيِّب به أنفسنا عن موتانا ؟ قال : نعم ، صغارهم دعاميص الجنة يتلقى أحدهم أباه فيأخذ بثوبه ، كما آخذ أنا بصنفة ثوبك هذا ، فلا يتناهى حتى يُدخله الله وأباه الجنة » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٣٥) ، وأحمد فى مسنده (٢/ ٥١٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

والسيئات ، وسيجرّهما إلى العذاب ، كانت الرحمة الكاملة فى أخذه بدل أنْ يتمتّعا به فى الدنيا الفانية ، ويشقيَا به فى الآخرة الباقية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ(١) وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ(٢) لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

(لِغُلاَمَيْنِ) أى : لم يبلغا سنَّ الرشْد ، وفوق ذلك هما يتيمان . وكان تحت هذا الجدار المائل كَنْز لهذين الغلامين الغير قادرين على تدبير شأنهما ، ولك أنْ تتصوّر ما يحدث لو تهدَّم الجدار ، وانكشف هذا الكنز ، ولمع ذهبه أمام عيون هؤلاء القوم الذين عرفت صفاتهم ، وقد منعوهما الطعام بل ومجرد المأوى ، إنَّ أقل ما يُوصفون به أنهم لئام لا يُؤتمنون على شيء . ولقد تعوَّدنا أن نعبر عن شدة الضياع بقولنا : ضياع الأيتام على موائد اللئام .

إذن : فلا شكَّ أن ما قام به العبد الصالح من بناء الجدار وإقامته أو ترميمه يُعَدُّ بمثابة صَفْعة لهؤلاء اللئام تناسب ما قابلوهم به من تنكُّر وسوء استقبال ، وترد لهم الصَّاع صاعين حين حرمهم الخضر من هذا الكنز .

---

(١) قال هنا الحق سبحانه : ﴿ فِى ٱلْمَدِينَةِ .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [الكهف] . وفى آية أخرى قال : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [الكهف] . ولذلك قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٩٨) : « فى هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة » .

(٢) قال عكرمة وقتادة وغير واحد : كان تحته مال مدفون لهما ، قال ابن كثير (٣/٩٨) : « وهو ظاهر السياق من الآية وهو اختيار ابن جرير رحمه الله ، وقال العوفى عن ابن عباس : كان تحته كنز علم » .

فعلَّة إصلاح الجدار ما كان تحته من مال يجب أنْ يحفظ لحين أنْ يكبُرَ هذان الغلامـان ويتمكنا من حفظه وحمايتـه فى قرية من اللئام . وكـان الحق سبـحانه وتعـالى أرسله لهـذين الغلامـين فى هذا الوقت بالذات ، حيث أخذ الجدار في التصدُّع ، وظهرت عليه علامات الانهيار ليقـوم بإصلاحه قبل أنْ يقع وينكشف أمـر الكنز وصاحبيـه فى حال الضعف وعدم القدرة على حمايته .

ثم إن العبد الصالح أصلح الجـدار وردَّه إلى ما كان عليه رَدَّ مَنْ علَّمـه الله من لَدُنْه ، فـيـقال : إنه بنَـاهُ بناءً موقـوتاً يتناسـب وعُمْـرَ الغلامين ، وكـانه بناه على عمر افتراضى ينتـهى ببلوغ الغلامين سنَّ الرشْد والقدرة على حماية الكنز فينهار . وهذه فى الواقع عملية دقيقة لا يقدر على حسابها إلا مَنْ أوتِى علماً خاصاً من الله تعالى .

ويبدو من سـياق الآية أنهـما كـانا فى سنٍّ واحدة توأميـن لقوله تعالى : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا .. (٨٢) ﴾ [الكهف] أى : سوياً ، ومعنـى الأشدّ : أى القوة ، حـيث تكتـمل أجهزة الـجسم وتسـتوى ، وأجهزة الجسم تكتمل حينما يصبح المرء قادراً على إنجاب مثله .

وتلاحظ أن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ قال هنا : ﴿ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا .. (٨٢) ﴾ [الكهف] ولم يقُلْ رُشْدهمـا ، لأنْ هناك فرْقاً بين الرُّشْـد والأشدّ فـالرُّشْد : حُسْن التـصرُّف فى الأمـور ، أمـا الأشدّ : فـهو القـوة ، والغلامان هنا فى حاجة إلى القوة التى تحمى كَنْزهما من هؤلاء اللئام فناسب هنا ﴿ أَشُدَّهُمَا .. (٨٢) ﴾ [الكهف]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ .. (٨٢) ﴾ [الكهف] أى : يستـخرجـاه بما لديهمـا من القوة والفُـتوَّة . والرحـمة : صفة تُعطَى للمرحوم لتمنعه من الداء ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ

مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ.. (٨٢)﴾ [الإسراء] فقوله : شفاء : أى : يشفى داءً موجوداً ويُبرئه . ورحمة : أى رحمة تمنع عودة الداء مرة أخرى .

وكذلك ما حدث لهذين الغلامين ، كان رحمة من الله لحماية مالهما وحفْظ حقِّهما ، ثم لم يَفُتْ العبد الصالح أنْ يُرجِع الفضل لأهله ، وينفى عن نفسه الغرور بالعلم والاستعلاء على صاحبه ، فيقول : ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي .. (٨٢)﴾ [الكهف] أى : أن ما حدث كان بأمر الله ، وما علَّمتك إياه كان من عند الله ، فليس لى مَيْزة عليك ، وهذا درس فى أدب التواضع ومعرفة الفضلْ لأهله .

ثم يقول : ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع[1] عَّلَيْهِ صَبْرًا (٨٢)﴾ [الكهف] تأويل : أى إرجاع الأمر إلى حقيقته ، وتفسير ما أشكل منه .

* * *

بعد ذلك تنتقل الآيات إلى سؤال آخر من الأسئلة الثلاثة التى سألها كفار مكة لرسول الله بإيعاز من اليهود ، وهو السؤال عن الرجل الطَّواف الذى طاف البلاد :

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣)﴾

ذو القرنين : هذا لقبه ؛ لأنه ربما كان فى تكوينه ذا قرنين ، أو

---

(١) فى هذه الآية قال : ﴿مَا لَمْ تَسْطِع .. (٨٢)﴾ [الكهف] . وقبل ذلك قال : ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع .. (٧٨)﴾ [الكهف] . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/١٠٠) : « لما أن فسَّره وبيَّنه ووضَّحه وأزال المشكل قال (تسطع) وقبل ذلك كان الإشكال قوياً ثقيلاً فقال (ما لم تستطع) فقابل الأثقل بالأثقل والأخف بالأخف ، كما قال ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ .. (٩٧)﴾ [الكهف] . وهو الصعود إلى أعلاه ، وقال : ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧)﴾ [الكهف] . وهو أشق من ذلك ، فقابل كلاً بما يناسبه لفظاً ومعنى ، والله أعلم » .

يلبس تاجاً له اتجاهان ؛ أو لأنه بلغ قرنى الشمس فى المشرق وفى المغرب .

وقد بحث العلماء فى : مَنْ هو ذو القرنين ؟ فمنهم مَنْ قال : هو الإسكندر الأكبر المقدونى الطواف فى البلاد ، لكن الإسكندر الأكبر كان فى مقدونيا فى الغرب ، وذو القرنين جاب المشرق والمغرب مما دعا عالماً محققاً من علماء الهند هو : أبو الكلام آزاد ـ وزير المعارف الهندى ـ إلى القول بأنه ليس هو الإسكندر الأكبر ، بل هو قورش الصالح ، وهذه رحلته فى الشرق والغرب وبين السدين ، كما أن الإسكندر كان وثنياً ، وكان تلميذاً لأرسطو ، وذو القرنين رجل مؤمن كما سنعرف من قصته .

وعلى العموم ، ليس من صالح القصة حَصْرها فى شخص بعينه ؛ لأن تشخيص حادثة القصة يُضعف من تأثيرها ، ويصبغها بصِبْغة شخصية لا تتعدى إلى الغير فنرى مَنْ يقول بأنها مسألة شخصية لا تتكرر .

إذن : لو جاء العلم فى ذاته سنقول : هذه الحادثة أو هذا العَمَل خاص بهذا الشخص ، والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أن يضرب لنا مثلاً يعُمُّ أى شخص ، ماذا سيكون مَسْلكه وتصرّفه إنْ مكَّنَ الله له ، ومنحه الله قوة وسلطة ؟

ولو حددَ القرآن هذه الشخصية فى الإسكندر أو قورش أو غيرهما لَقُلْنَا : إنه حَدث فردىّ لا يتعدى هذا الشخص ، وتنصرف النفس عن الأسْوة به ، وتفقد القصة مغزاها وتأثيرها . ولو كان فى تعيينه فائدة لَعيَّنه الله لَنَا .

وسبق أنْ أوضحنا أن الحق ـ سبحانه ـ عندما ضرب مثلاً للذين

كفروا ، قال : ﴿ امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ .. ⑩ ﴾ [التحريم] ولم يُعيِّنهما على التحديد ؛ لأن الهدف من ضرب المثل هنا بيان أن الرسول المرسَل من الله لهداية الناس لم يتمكَّن من هداية زوجته وأقرب الناس إليه ؛ لأن الإيمان مسألة شخصية ، لا سيطرة فيها لأحد على أحد .

وكذلك لما ضرب الله مثلاً للذين آمنوا قال : ﴿ امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ .. ⑪ ﴾ [التحريم]

ففرعون الذى أضلَّ الناس وادَّعى الألوهية زوجته مؤمنة ، وكأن الحق سبحانه يُلمِّح للناس جميعاً أن رأيك فى الدين وفى العقائد رأى ذاتى ، لا يتأثر بأحد أيّاً كان ، لا فى الهداية بنبى ، ولا فى الغواية بأضلّ الضالين الذى ادعى الألوهية .

وهكذا يحفظ الإسلام للمرأة دورها وطاقتها ويحترم رأيها .

إذن : الحق سبحانه وتعالى أتى بهذه القصة غير مُشخَّصة لتكون نموذجاً وأُسْوة يحتذى بها كل أحد ، وإلاَّ لو شخصتْ لارتبطتْ بهذا الشخص دون غيره ، أما حينما تكلم الحق سبحانه عن مريم فنراه يحددها باسمها ، بل واسم أبيها ؛ ذلك لأن ما سيحدث لمريم مسألة خاصة بها ، ولن تحدث بعدها أبداً فى بنات آدم ، لذلك عيَّنها وشخَّصها ؛ لأن التشخيص ضرورى فى مثل هذا الموقف .

أما حين يترك المثل أو القصة دون تشخيص ، فهذا يعنى أنها صالحة لأنْ تتكرر فى أىّ زمان وفى أىّ مكان ، كما رأينا فى قصة أهل الكهف ، وكيف أن الحق سبحانه أبهمهم أسماءً ، وأبهمهم مكاناً وأبهمهم زماناً ، وأبهمهم عدداً ، ليكونوا أُسْوة وقُدْوة للفتيان المؤمنين فى أىّ زمان ، وفى أىّ مكان ، وبأىّ عدد .

قوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ .. ⑧③ ﴾ [الكهف]

نلاحظ أن مادة السؤال لرسول الله ﷺ فى القرآن أخذتْ حيِّزاً كبيراً فيه ، فقد ورد السؤال للنبى من القوم ست عشرة مرة ، إحداها بصيغة الماضى فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ .. (١٨٦) ﴾ [البقرة]

وخمس عشرة مرة بصيغة المضارع ، كما فى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ .. (١٨٩) ﴾ [البقرة]

وقوله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ .. (٢١٥) ﴾ [البقرة]

: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ .. (٢١٧) ﴾ [البقرة]

: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ .. (٢١٩) ﴾ [البقرة]

: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ .. (٢١٩) ﴾ [البقرة]

: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ .. (٢٢٠) ﴾ [البقرة]

: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ .. (٢٢٢) ﴾ [البقرة]

: ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ .. (٤) ﴾ [المائدة]

: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ .. (١٨٧) ﴾ [الأعراف] ثلاث مرات،[النازعات ٤٢]

: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ .. (١) ﴾ [الأنفال]

: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ .. (٨٥) ﴾ [الإسراء]

: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ .. (٨٣) ﴾ [الكهف]

: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا (١٠٥) ﴾ [طه]

خمسة عشر سؤالاً بالمضارع ، إلا أن الجوابَ عليها مختلف ،

وكلها صادرة عن الله الحكيم ، فلا بُدَّ أنْ يكون اختلاف الجواب في كل سؤال له ملْحظ ، ومن هذه الأسئلة ما جاء من الخصوم ، ومنها ما سأله المؤمنون ، السؤال من المؤمنين لرسول الله - وقد نهاهم أنْ يسألوه حتى يهدأوا - إلحاحٌ منهم في معرفة تصرُّفاتهم وإنْ كانت في الجاهلية ، إلا أنهم يريدون أنْ يعرفوا رأى الإسلام فيها ، فكأنهم نَسُوا عادات الجاهلية ويرغبون في أن تُشرَّع كل أمورهم على وَفْق الإسلام .

وبتأمّل الإجابة على هذه الأسئلة تجد منها واحدةً يأتي الجواب مباشرة دون (قُلْ) وهي قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ .. ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة] وواحدة وردتْ مقرونة بالفاء (فَقُلْ) وهي قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [طه]

وباقي الأسئلة وردت الإجابة عليها بالفعل (قُلْ) ، فما الحكمة في اقتران الفعل بالفاء في هذه الآية دون غيرها ؟

قالوا : حين يقول الحق سبحانه في الجواب (قُلْ) فهذه إجابة على سؤال سُئلَهُ رسول الله بالفعل ، أي : حدث فعلاً منهم ، أما الفاء فقد أتتْ في الجواب على سؤال لم يُسأله ، ولكنه سيُسأله مستقبلاً .

فقوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ .. ﴿١٠٥﴾ ﴾ [طه] سؤال لم يحدث بَعْد ، فالمعنى : إذا سألوك فَقُلْ ، وكأنه احتياط لجواب عن سؤال سيقع .

فإذا قُلْتَ : فما الحكمة في أنْ يأتي الجواب في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ .. ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة] خالياً من : قُلْ أو فَقُلْ : مع أن (إذا) تقتضى الفاء في جوابها ؟

نقول : لأن السؤال هنا عن الله تعالى ، ويريد سبحانه وتعالى أنْ يُجيبهم عليه بانتفاء الواسطة من أحد ؛ لذلك تأتي الإجابة

مباشرة دون واسطة : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ .. (١٨٦) ﴾ [البقرة]

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ .. (٨٣) ﴾ [الكهف] أي : عن تاريخه وعن خبره والمهمة التي قام بها ﴿ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) ﴾ [الكهف]

وأيُّ شرف بعد هذا الشرف ، إن الحق تبارك وتعالى يتولّى التاريخ لهذا الرجل ، ويُؤرّخ له في قرآنه الكريم الذي يُتلَى ويُتعبَّد به إلى يوم القيامة والذي يُتحدّى به ، ليظل ذكْره باقياً بقاء القرآن ، خالداً بخلوده ، ويظل أثره فيما عمل أُسْوة وقُدْوة لمن يعمل مثله . إنْ دَلَّ هذا على شيء فإنما يدلُّ على أن العمل الصالح مذكور عند الله قبل أنْ يُذكَرَ عند الخلق .

فأيُّ ذكْر أبقى من ذكر الله لخبر ذي القرنين وتاريخه ؟

و (مِنْهُ) أي : بعضاً من ذكْره وتاريخه ، لا تاريخه كله .

وكلمة (ذِكْر) وردت في القرآن الكريم بمعان متعددة ، تلتقي جميعها في الشرف والرفعة ، وفي التذكُّر والاعتبار . وإنْ كانت إذا أُطلقتْ تنصرف انصرافاً أولياً إلى القرآن ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر] وبعد ذلك تُستعمل في أيّ كتاب أنزله الله تعالى من الكتب السابقة ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) ﴾ [النحل]

وقد يُطلَق الذكر على ما يتبع هذا من الصِّيت والشرف والرفعة وتخليد الاسم ، كما في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ .. (١٠) ﴾ [الأنبياء]

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ .. (٤٤) ﴾ [الزخرف]

أى : صيت حَسَن وشرف ورفْعة كون القرآن يذكر هذا الاسم ؛ لأن الاسم إذا ذُكِر فى القرآن ذاعَ صيتُه ودَوَّى فى الآفاق .

وقلنا فى قصة زيد بن حارثة أنه كان عبداً بعد أنْ خُطف من قومه وبيع فى مكة لخديجة رضى الله عنها ، ثم وهبته لرسول الله ﷺ ؛ لذلك أطلقوا عليه زيد بن محمد ، فلما علم أهله بوجوده فى مكة أتى أبوه وعمه ، وكلّموا رسول الله فى شأن زيد فقال : خَيِّروه .

فلما خَيَّروا زيداً قال : ما كنتُ لأختار على رسول الله أحداً ، لذلك أكرمه النبى ﷺ وسمَّاه زيدَ بن محمد ، فلما أراد الحق سبحانه أن يبطل التبنى ، ونزل قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ .. (٤٠) ﴾ [الأحزاب] وقال : ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. (٥) ﴾ [الأحزاب]

فلا تقولوا : زيد بن محمد . وقولوا : زيد بن حارثة ، وهنا حَزِنَ زَيْد لهذا التغيير ، ورأى أنه خسر به شرفاً عظيماً بانتسابه لمحمد ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يجبر خاطر زيد ، ويجعل اسمه علَماً يتردد فى قرآن يُتْلَى ويُتعبَّد به إلى يوم القيامة ، فكان زيد هو الصحابى الوحيد الذى ورد ذكره باسمه فى كتاب الله فى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا[1] زَوَّجْنَاكَهَا .. (٣٧) ﴾ [الأحزاب]

فأىُّ شرف أعلى وأعظم من هذا الشرف ؟

ونلحظ فى هذه الآية : ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ..(٥) ﴾

(١) الوطر : الحاجة التى يعتنى بها الإنسان ويهتم لها ، وإذا بلغها قيل : إنه قضى وطره ، أى : حقق رغبته وقضى حاجته وانتهى من أمرها . وقوله عن زيد معناه : فلما طلقها ولم يعد بحاجة لها . [القاموس القويم ٢/ ٣٤٣] .

[الأحزاب] أن الحق سبحانه لم يتهم رسوله ﷺ بالجور ، فقال ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. ۝٥﴾ [الأحزاب] فما فعله الرسول كان أيضاً قسطاً وعدلاً ، وما أمر الله به هو الأقسط والأعدل .

إذن : فذكْر ذى القرنين فى كتاب الله شرف كبير ، وفيه إشارة إلى أن فاعل الخير له مكانته ومنزلته عند الله ، ومُجازىً بأنْ يُخلّد ذكره ويبقى صيته بين الناس فى الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ۝٨٤﴾ (١)

التمكين : أى أننا أعطيناه إمكانات يستطيع بها أن يُصرِّف كل أموره التى يريدها ؛ لأنه مأمون على تصريف الأمور على حَسْب منهج الله ، كما قال تعالى فى آية أخرى عن يوسف عليه السلام : ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ .. ۝٥٦﴾[يوسف]

فالتمكين يعنى إعطاءه إمكانات لكل غرض يريده فيُصرِّف به الأمور ، لكن لماذا مكنّاه ؟ مكنّاه لأنه مأمون على تصريف الأمور وَفْق منهج الله ، ومأمون على ما أعطاه الله من إمكانات .

وقوله : ﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ۝٨٤﴾ [الكهف] أى : أعطيناه أسباباً يصل بها إلى ما يريد ، فما من شىء يريده إلا ويجعل الله له وسيلة مُوصِّلة إليه .

فماذا صنع هو ؟

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٥﴾

---

(١) أى : أعطيناه ملكاً عظيماً ممكناً فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب والحصارات . [تفسير ابن كثير ١٠١/٣] .

أتبع السبب ، أى : لا يذهب لغاية إلا بالوسيلة التى جعلها الله له ، فلقد مكَّن الحق لذى القرنين فى الأرض ، وأعطاه من كل شىء سبباً ، ومع ذلك لم يركن ذو القرنين إلى ما أُعطى ، فلم يتقاعس ، ولم يكسل ، بل أخذ من عطاء الله له بشىء من كل سبب .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ[1] وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ ﴾

وبلوغه مغرب الشمس دليل على أنه لم يكُنْ بهذا المكان ، بل كان قادماً إليه من المشرق . ومعنى (مغرب الشمس) هل الشمس تغرب ؟

هى تغرب فى عين الرائى فى مكان واحد ، فلو لاحظتَ الشمس ساعة الغروب لوجدتها تغربُ مثلاً فى الجيزة ، فإذا ذهبت إلى الجيزة وجدتها تغرب فى مكان آخر وهكذا ، إذن : غروبها بمعنى غيابها من مرأىَ عينك أنت ؛ لأن الشمس لا تغيب أبداً ، فهى دائماً شارقة غاربة ، بمعنى أنها حين تغرب على قوم تشرق على آخرين ؛ لذلك تتعدد المشارق والمغارب .

وهذه أعطتنا دوام ذكر الله ودورانه على الألسنة فى كل الأوقات ،

---

(١) قرأها ابن عاصم وعامر وحمزة والكسائى « حامية » أى : حارة . والباقون قرأوها « حمئة » أى : كثيرة الحمأة وهى الطينة السوداء . [تفسير القرطبى ٦/٤٢١٨] .

قال ابن كثير فى تفسيره (٣/١٠٢) : « قال ابن جرير : والصواب أنهما قراءتان مشهورتان وأيهما قرأ القارىء فهو مصيب . قلت : ولا منافاة بين معنييهما ، إذ قد تكون حارة لمجاورتها وهج الشمس عند غروبها وملاقاتها الشعاع بلا حائل وحمئة فى ماء وطين أسود كما قال كعب الأحبار وغيره » .

فحين نصلى نحن الظهر مثلاً يصلى غيرنا العصر ، ويصلى غيرهم المغرب ، وهكذا فالحق سبحانه مذكور فى كل وقت بكل وقت ، فلا ينتهى الظهر لله ، ولا ينتهى العصر لله ، ولا ينتهى المغرب لله ، بل لا ينتهى الإعلام بواحدة منها طوال الوقت ، وعلى مَرِّ الزمن ؛ لذلك يقول أهل المعرفة : يا زمن وفيك كل الزمن .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ .. ﴿٨٦﴾ ﴾ [الكهف] أى : فى عين فيها ماء . وقلنا : إن الحمأ المسنون هو الطين الذى اسودّ لكثرة وجوده فى الماء . وفى تحقيق هذه المسألة قال عالم الهند أبو الكلام آزاد[1] ، ووافقه فضيلة المرحوم الشيخ عبد الجليل عيسى ، قال : عند موضع يسمى (أزمير) .

وقوله : ﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا .. ﴿٨٦﴾ ﴾ [الكهف] أى : عند هذه العين ﴿ قُلْنَا يَـٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ ﴾ [الكهف] إذن : فهذا تفويض له من الله ، ولا يُفوِّض إلا المأمون على التصرُّف ﴿ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ .. ﴿٨٦﴾ ﴾ [الكهف] ولا بُدّ أنهم كانوا كفرة أو وثنيين لا يؤمنون بإله ، فإما أنْ تأخذهم بكفرهم ، وإما أن تتخذَ فيهم حُسْناً .

لكن ما وجه الحُسْن الذى يريد الله أن يتخذه ؟ يعنى أنهم قد يكونون من أهل الغفلة الذين لم تصلهم الدعوة ، فبيِّن لهم وجه الصواب ودلّهم على دين الله ، فَمنْ آمن منهم فأحسن إليه ، ومَنْ أصرّ على كُفْرِه فعذّبه ، إذن : عليك أن تأخذهم أولاً بالعظة الحسنة والبيان الواضح ، ثم تحكم بعد ذلك على تصرفاتهم .

---

(١) أبو الكلام آزاد : هو أحمد بن خير الدين ، الهندى الأب ، العربى الأم والثقافة ، ولد بمكة (١٣٠٢ هـ) وأصله من دهلى ، درس على علماء الأزهر ، مفسر من خطباء المسلمين وزعمائهم فى الهند أيام حركتها التحررية ، تولى وزارة المعارف فى الهند إلى أن توفى مشلولاً عام (١٣٧٧ هـ) [الأعلام للزركلى ١٢٢/١] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ ﴾

قوله : ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [الكهف] يعطينا إشارة إلى المهلة التى سيعطيها لهؤلاء ، مهلة تمكّنه أنْ يعظهم ويُذكّرهم ويُفهِّمهم مطلوبات دين الله .

وسبق أن قلنا : إن الظلم أنواع ، أفظعها وأعلاها الشرك بالله ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان]

ثم يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ ﴾ [الكهف]

فلن نُعذِّبه على قدْر ما فعل ، بل نُعذِّبه عقوبة دنيوية فقط ؛ لأن العقوبات الدنيوية شُرعَتْ لحفظ توازن المجتمع ، وردْع مَنْ لا يرتدع بالموعظة ، وإلا فما فائدة الموعظة فى غير المؤمن ؟ لذلكَ نرى الأمم التى لا تؤمن بإله ، ولا بالقيامة والآخرة تُشرِّع هذه العقوبات الدنيوية لتستقيم أوضاعها .

وبعد عذاب الدنيا وعقوبتها هناك عذاب أشدّ فى الآخرة ﴿ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ ﴾ [الكهف] والشىء النكر : هو الذى لا نعرفه ، ولا عَهْد لنا به أو أُلْفة ؛ لأننا حينما نُعذَّب فى الدنيا نُعذَّب بفطرتنا وطاقتنا ، أما عذاب الله فى الآخرة فهو شىء لا نعرفه ، وفوق مداركنا وإمكاناتنا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾

قوله : ﴿فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ .. ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف] أى : نعطيه الجزاء الحسن ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف] نقول له الكلام الطيب الذى يُشجِّعه ويحفِّزه ، وإنْ كلَّفناه كلَّفناه بالأمر اليسير غير الشاق .

وهذه الآية تضع لنا أساس عملية الجزاء التى هى ميزان المجتمع وسبب نهضته ، فمجتمعٌ بلا جزاءات تثيب المجدّ وتعاقب المقصِّر مجتمع ينتهى إلى الفوضى والتسيُّب ، فإنْ أمِنَ الناسُ العقابَ تكاسلوا ، وربما ما تعانيه مصر الآن من سوء الإدارة راجع إلى ما فى المجتمع من أشخاص فوق القانون لا نستطيع معاقبتهم فيتسيَّب الآخرون .

وكذلك نرى المراتب والجوائز يظفر بها مَنْ لا يعمل ، ويظفر بها مَنْ يتقرب ويتودد ويتملَّق وينافق ، ولهؤلاء أساليبهم الملتوية التى يجيدونها ، أما الذى يجدّ ويعمل ويخلص فهو مُنْهك القوى مشغول بإجادة عمله وإتقانه ، لا وقْتَ لديه لهذه الأساليب الملتوية ، فهو يتقرب بعمله وإتقانه ، وهذا الذى يستحق التكريم ويستحق الجائزة . ولك أنْ تتصوَّر مدى الفساد والتسيّب الذى تسببه هذه الصورة المقلوبة المعوجة .

إذن : فميزان المجتمع وأساس نهضته : ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف]

فما أجملَ أنْ نرصُدَ المكافآت التشجيعية والجوائز ، ونقيم حفلات التكريم للمتميزين والمثاليين ، شريطةَ أنْ يقومَ ميزان الاختيار على الحق والعدل .

والحُسْنى : أفعل التفضيل المؤنث لحسن ، فإذا أعطيناه الحسنى